الفصل العاشر

التدخل في الدين

إلى جانب المعاناة السياسية والثقافية والاقتصادية التي عاناها المسلمون فقد خضعوا أيضاً إلى حملة من التدخل في دينهم واتخذ هذا التدخل شكل مهاجمات لتشويه الدين الإسلامي في الكتب المدرسية أو في الصحافة وانتهاك حرمة المساجد والأماكن المقدسة والتحريض على كراهية مشاعر المسلمين الدينية.

ففي مجال التربية كما هي الحال في المجالات الأخرى بقي النموذج العلماني حبراً على ورق ولو أن علمانية الهنادكة بقيت على ما كانت عليه الحال من علمانية في العهد الإنكليزي لما كان للمسلمين من سبب وجيه للشكاية ولكن الواقع هو أن معظم الولايات جعلت المعتقدات الدينية الهندوكية والفلسفة والأساطير الهندوكية في الكتب المدرسية تحت اسم الثقافة الهندية، وذلك إلى حد لو نظرنا نظرة عابرة في الكتب المدرسية المفروضة رسمياً، لبدا لنا التأثير الواضح من المسؤولين عن هذه الكتب، فهم ينظرون إلى بلد متعدد الديانات مثل الهند على أنه بلد واحد وموطن للمثقفين من أبناء البراهمة أي الطبقة العليا عند الهنادكة، ويربطون كل القيم بآلهتهم واحتفالاتهم ومعابدهم ومراكز هجرتهم وعاداتهم وتقاليدهم الدينية. لذا فإن مناهج التعليم الموجودة تدرس أبناء المسلمين عقيدة تناقض مبادىء دينهم الأساسية وتناهض فكرة الوحدة الإلهية وهي بذلك تجبر أطفال المسلمين على تعلم أساطير دين آخر وتعتبر هذه العقائد متناقضة كثيراً مع الدين الإسلامي لدرجة أنها تنقلهم خارج نطاق دينهم.

الدعاية المناوئة للدين الإسلامي:

إن الكتب التي تعالج الإرث الهندي تتعامل على وجه الحصر مع الإرث الهندوكي ومع أبطال الهنادكة وتموّه كل ما يتعلق بالمسلمين في التاريخ الهندي المتعلق بالقرون الوسطى وتعتبرهم غرباء وأجانب وتصورهم بمظاهر غير لائقة ولا رصينة ومثيرة للإشمئزاز، وأكبر مثال على ذلك هو المعاملة غير العادلة التي ذكرت في كتاب (همارا بوردج) المفروض على الصفوف: السادس والسابع والثامن في مدارس أوتار براديش. وفي بعض الكتب وصف المسلمون بأنهم قذرون أو أجانب حتى إن الرسول محمد ﷺ لم ينج من ذلك إذ يوجد كتاب مدرسي تاريخي وافقت عليه حكومة بهار وهو يقدم صورة مزيفة عن الرسول تحت عنوان (محمد رسول السماء) وينص الكتاب على تصريحات مذهلة منها بأن العمل الرئيسي للرسول كان رعاية الماشية ثم بعد أن ورث هذه المهنة عن عمه وبعد أن وصل إلى سن البلوغ بدأ بأعمال تجارية. وزعم كاتب هذا الكتاب بأن القرآن هو من صنع الرسول نفسه وهذا يناقض معتقدات المسلمين الذين يعتبرون القرآن كلام الله. ويذكر الكتاب أيضاً ملاحظات بذيئة عن السيدة خديجة إحدى زوجات الرسول.

وفي ولاية راجستان تتضمن الكتب المدرسية المفروضة معلومات تحط من قدر الرسول الكريم، وفي عام ١٩٥٢ أصدر وزير التربية تعليمات إلى المؤلفين ليتابعوا الدروس باللغة الهندية وأن يعالجوا المواد الأخرى التي تتعلق بأهمية البقرة في جميع المراحل وبطريقة مناسبة، وإلى جانب ذلك كانت تقام الطقوس الدينية الهندوكية في المعاهد الثقافية في تلك البلاد وتجبر أولاد المسلمين على المشاركة فيها وكذلك كان هناك اعتراض شديد على الصلوات التي تتلى في المدارس الأمر الذي ينتهك الضمانة الدستورية للحرية الدينية الممنوحة للمسلمين. ويذكر مولانا حفظ الرحمن أن هناك دراسة مشابهة اتبعت في ولاية يوبي وقال: «إن بعض الكتب في المناهج المدرسية تتضمن أشياء تجرح مشاعر بعض الجماعات».

إن إدخال مثل هذه الكتب في المناهج المدرسية لا يمثل فقط إهانة مستمرة لحقوق المسلمين ومشاعرهم بل يهدف أيضاً إلى إضعاف إيمان الأطفال المسلمين الذين يجبرون على قراءة هذه الكتب واستعمال محتوياتها في الامتحانات، ولقد تمت مناقشة هذا الوضع المروع بشكل مطول في المؤتمر الثقافي الإسلامي في مدينة باستي في ولاية يوبي في نهاية عام ١٩٥٩. وحضر المؤتمر نحو ٣٠٠ موفد يمثلون جميع درجات المسلمين وطالبوا الحكومة بشطب جميع التلميحات الحاقدة والمعادية للدين الإسلامي والعلماء المسلمين وأبطالهم[١]، من الكتب المدرسية والمقاطع التي تهدف إلى نشر ديانة جماعة معينة ونشر ثقافتها فقط. وطالب المؤتمر أيضاً الحكومة أن تحث على النهج الثقافي الذي يعتمد على أساس علماني صادق، ولكن مطالبهم ذهبت دون جدوى.

ولم تتخذ حكومة بهار أي إجراء لتنفيذ مطلب المسلمين في بهار بتحريم الكتاب المذكور أعلاه، ولا عجب أن تعلق صحيفة أسبوعية في دلهي على ذلك بقولها:

«تعتبر وزارة التربية في الهند مقبرة عدد كبير من الوفود. وكذلك الحال بالنسبة لقسم التربية في الولاية. والسؤال الذي يؤلم المسلمين باستمرار هو: متى ستتوقف المزعجات المتكررة وأعمال التعذيب التي يتعرض لها المسلمون والتي أصبحت تسلية سارّةً لبعض الناس في وطننا؟».

وقدمت صحيفة (مذر انديا)[٢] مثالاً آخر عن هذه (التسلية السارة) فقد

---

(١) في بعض الأحيان كانت وكالات الأنباء الحكومية تقوم بدعاية معادية للمسلمين وعلى سبيل المثال قدمت إذاعة بمبي مسرحية باسم (دورغاداس) في الثامن من سبتمبر ١٩٦٣ وصفت فيها زوجة الامبراطور أورلك زيب بأنها كانت امرأة مدمنة على الخمر وفاسقة. وقد احتجت العديد من الصحف الإسلامية ضد هذا الطعن البذيء في الشخصيات الإسلامية المحترمة، ومن الجدير بالذكر أن هذه المسرحية عرضت أول مرة في العشرينات من قبل شركة مسرحية ولكنها منعت بسبب اعتراض المسلمين عليها.

(٢) MOTHER INDIA

نشرت مقالاً تحت عنوان (عدو الهند) هاجمت فيه هجوماً سفيهاً المسلمين إذ قالت: «. . . إن الجزء الجوهري من الدين الإسلامي هو تسمية الهنادكة بالكافرين وتحطيمهم. . . وبما أن المسلمين رجال دين متعصبون فقد تبعوا تعاليم دينهم وحاولوا باستمرار صرف الناس عن دينهم إلى الدين الإسلامي بطريق السلب أو الإغراء أو الزواج أو العنف ويقومون بغارات دورية تستهدف القتل وحرق المنازل باسم الدين الإسلامي. . . وتعتبر الكراهية والتعصب ركنين أساسيين من أركان الإسلام وقد ازدهر الإسلام بتحطيم الآخرين. . .».

وفي الواقع أن هذا الكلام كان تحريضاً للهنادكة ليفعلوا بمسلمي الهند ما زعم بأن المسلمين قد فعلوه بالهنادكة في العصور السابقة. وكتبت صحيفة أسبوعية في دلهي تقول:

لقد أدت هذه الدعاية المنشورة في الصحف والنشرات والبيانات. . . في الماضي القريب إلى خسارة كبيرة بين المسلمين في الأرواح والممتلكات. . . وقد كان لهذه الخطب، بشكل مباشر أو غير مباشر أثر بتحريض مشاعر الكراهية والعداء بين الهنادكة والمسلمين. . .».

ونشرت صحيفة بال بهارتي في عددها الصادر في مارس ١٩٦١ على الغلاف الداخلي صوراً تمثل شيفاجي الإله وهو يقطع رأس جزار يسوق بقرة ضالة، وقد كتبت صحيفة الصراط عن ذلك تقول: «بغض النظر عن صحة هذه الرواية أو عدم صحتها فإن هناك سؤالاً آخر وهو: هل من المناسب نشر هذه الأشياء، ليس فقط، بالكلمات بل بالصور التي تترك أثراً أعمق وأبعد؟ واشتكت الصحيفة أيضاً من أن الكتب المدرسية تعطي دروساً عن المؤيدين للهندوكية وتصف جوانب الدين الهندوكي والثقافة الهندوكية دون ذكر أية كلمة عن المسلمين ومساهمتهم بالفن الهندي والثقافة الهندية وحضارتها»[1].

---

(١) وعلى النقيض تماماً تعرضت مشاعر المسلمين إلى الإهانة في مرات عديدة ودون أي سبب ومثال ذلك نشرت صحيفة مرتهى في بونا في يوليو ١٩٦٩ صورة عن الرسول والملاك =

واتهمت السيدة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء في حديثها في البرلمان في ١٤ مايو ١٩٧٠ دور منظمة جان سينغ في حوادث الشغب وإثارة الكراهية الطائفية واتهمت منظمة جان سينغ بقيامها بتحريف مقصود للتاريخ وعلى سبيل المثال فقد عملت جان سينغ منذ عام ١٩٦٧ على الدعوة إلى الكراهية الطائفية في الكتب المدرسية المقدمة في دلهي.

تدنيس المساجد والأماكن المقدسة:

يمكن الاستشهاد بأمثلة عديدة عن تدنيس المساجد من قبل الطائفيين الهنادكة خلال العقدين الماضيين ومن المحزن أن الحكومة على الرغم من تجاهلها الشديد للاعتداء على مشاعر المسلمين الدينية كانت في بعض الأحيان تعلن موافقتها ولو ضمناً على هذه النشاطات فعلى سبيل المثال قدم وزير الإنعاش الهندي في سنة ١٩٦١ طلباً بإعادة جميع المساجد والمقابر التي أخذت عنوة من المسلمين إلى أصحابها ولكن هذا الطلب كان عبارة عن تمويه دحضه مولانا حفظ الرحمن في بيان نشر فيه قائمة مطولة بأسماء المساجد والمقابر التي لم ترجع إلى المسلمين بل إنها بيعت بالمزاد العلني من قبل وزارة الإنعاش نفسها.

وقدم حافظ علي بهادر عضو سابق في الكونغرس ومحرر صحيفتي الدور الجديد التي تصدر عن دلهي وصحيفة الأقليات مرات عديدة رسائل يلفت بها الانتباه في صحيفتيه إلى تحويل المساجد والأماكن المقدسة إلى معابد هندوكية في السنوات الأخيرة وقد قدم شكوى إلى الشرطة عندما جردت القبور المتاخمة لمسجد مهرول من ممتلكاتها وتحول المسجد إلى معبد هندوكي عام ١٩٦٣ ولكن كل هذه الشكاوى ذهبت أدراج الرياح وتوقف مجلس الوقف المسؤول

= جبرائيل. وعلى الرغم من احتجاجات مجلس المشاورات الإسلامي نشرت الصحيفة ذاتها مرة أخرى الصورة ذاتها على غلاف عددها الصادر في ٢٤ أوغست وفي العدد نفسه نشرت مقالة استفزازية تسأل فيها المسلمين أن يسايروا الوقت ويتخلوا عن الإسلام ويخترعوا ديناً جديداً.

عن المساجد والمقابر عن العمل متأثراً بحوادث الشغب التي جرت أيام التقسيم. ويقول علي بهادر خان: إن عشرات المقابر الإسلامية وممتلكات الوقف استولى عليها الهنادكة ولم يتخذ أي إجراء لاسترجاعها.

خَاتِمَة

من الأمثال العربية: (ليس راءٍ كمن سمع) وأنا أقول إنه على الرغم مما جاء في هذا الكتاب القيم من تفصيل عن الهندوكية وعن الهنادكة وما أتوه ويأتونه من أعمال شاذة وما يبيتونه للإسلام والمسلمين من شرور وآثام وما جبلوا عليه من حقد وغطرسة فإنما هو القليل القليل من الكثير الكثير الذي ينطوون عليه، ولا يستطيع المرء وخاصة المسلم، الذي جبل على التسامح وحب الجار وإكرامه والإيمان بجميع الأديان ورسل تلك الأديان وتوقيرها وتعزيزها، أن يصدق ما هو عليه الهندوكي من طباع غريبة وحقد دفين وسيئات لا تعد ولا تحصى، إلّا إذا عاش بين القوم وتسنى له أن يخالطهم في السر والعلن وفي السراء والضراء، ومع ذلك فإنه لا يصل إلى أعماقهم بل يظل طافياً على السطح.

إن الهندوكية كما يعرضها الهنادكة بأفعالهم وكما هي مذكورة في كتبهم شيء قبيح جداً وأعتقد أنه لو وجد أناس مخلصون لدينهم وعندهم من الجرأة والسلطة ما يخولهم تهذيب هذا الدين وجعله قابلاً أن يكون عقيدة مقبولة لوجد أنصاراً يؤيدونه، ولكننا على الضد من ذلك، نراهم يزدادون بعداً عن المعقول يوماً بعد يوم ويغالون فيما يفعلون ويقولون ما ينفر منهم ليستفزوا شعور جهالهم ولكي يخلقوا جواً من التوتر بين الهنادكة والمسلمين.

إن كل الأديان لها مبادىء وعقائد إذا قبلها المرء أصبح من أهل ذاك الدين فاليهود موحدون وإلههم يهوه والمسيحيون عقيدتهم التثليث في الوحدانية والمسلمون مؤمنون موحدون وأما الهندوكي فليس لدينه مبادىء يعرف بها ولذا فإنه تمسك بقرني البقرة وذيلها وألزم نفسه بتقديسها ولكنه أخرجها من زمرة

البهائم وأدخلها في زمرة الآلهة وهو لا يكتفي بأن يشرب حليبها بل إنه يشرب بولها ويتطهر بخثيها ويلزم نفسه بخدمتها والقيام عليها مسنة ومريضة.

وقد عقد في العشرينات مؤتمر هندركي لكي يضعوا تعريفاً للهندوكية وبعد بحث طويل عريض لم يجدوا إلّا تعريفاً سلبياً وهو أن كل من يقطن الهند ولا يدين بأحد الأديان الأخرى ويقدس البقر فهو هندوكي.

ومن غريب أمر الهنادكة أن تعصبهم للبقر لا يقف عند جهلة القوم بل هو عقيدة كبارهم ومثقفيهم إذ يقول غاندي: «إنه لا معنى لاستقلال الهند إذا لم يحرم ذبح البقر»، ويقول الزعيم نهرو الذي يعد من أذكى زعماء الهنادكة وأبعدهم نظراً والذي كان شيوعياً وملحداً وقد عاش في روسيا سنوات يدرس الشيوعية: «إن البقرة جديرة بالتقديس».

والذي أراه هو أن الهنادكة قد تعلقوا بالبقرة لأنه ليس لديهم شيء يتعلقون به وبهذا الاعتقاد يستطيعون أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم من الأمم ولكي لا يدخلوا في ملتهم إلّا من كان على رأيهم، على أن هذا لا يكفي لأن نظام الطبقات يظل حاجزاً بينهم وبين غيرهم من الأمم، فالشخص الذي يولد في بيت برهمي مقدّس وندّ للآلهة بل قد يمتاز على الآلهة في بعض الأحيان، وشخص يولد في بيت شودر يظل كل حياته حقيراً مهاناً منبوذاً نجساً، فكيف والحالة هذه يمكن أن يكون للهند كيان مستقل وللهندوكية وطن؟ إن الوطن الذي لا يجد فيه المرء الكرامة والعزة والحرية هو مسلخ وليس بوطن وإن البلد الذي لا يحترم فيه أهله هو سجن وليس بوطن.

الوطن هو البلد الذي يعيش فيه المرء حراً مستقلاً مساوياً لجميع مواطنيه يتحين كل الفرص المتاحة لبناء وطنه وإلّا فإنه لا يكون وطناً بل قفصاً.

إني أعتقد أنه ليس للقضية الهندوكية من حلّ إلّا أن يترك الهنادكة عقيدتهم بالبقرة ويختاروا ديناً آخر، ولا أقول الإسلام على الرغم من أنه خير الأديان وأبسطها، بل أقول أي دين معترف به عالمياً أو أن يخترعوا ديناً جديداً معقولاً

ومقبولاً، وإن ديناً مضى عليه أربعة الاف سنة خليق بأن يعاد فيه النظر ليساير الزمن، وليس في هذا العمل عيب ولا عار فالمسيحية هي يهودية مجددة والبوذية والجينية هما أيضاً تجديد للهندوكية.

إن إطلاعي على الهندوكية وغيرها من الديانات البدائية جعلني أعتقد أن لا علاقة للدين بالعلم أو بالعقل أيضاً لأن الدين عقيدة يرثها المرء من أبويه وتجري في دمه ويقوم بواجباتها وهو مسلوب الإرادة ولو حكّم الناس عقولهم في بعض المعتقدات لكفروا بها. وإذا كنت أدعو الهنادكة إلى دين جديد فإني أفضل لهم الإسلام لأنه آخر الأديان وأبسطها وباعتناقهم الإسلام يصبحون سادة شبه القارة الهندية الباكستانية بلا خلاف وربما بلغوا أكثر من ذلك من غير أن يريقوا قطرة دم أو أن يعيشوا في خصام مستمر مع إخوانهم في الوطن.

وأنا على يقين من أن عقلاء الهنادكة لا يقدسون البقرة لأنهم يعتقدون بقدسيتها أو لأنها تستحق التقديس بل لأنهم لا يجدون سبباً معقولاً يستندون إليه في دينهم. ومن المضحك أن الذين يقدسون البقر يقولون إنهم يقدسونها لأنها تعطيهم الحليب على أن كل إناث الحيوانات تعطي الحليب فالبدوي يعيش على حليب نياقه والفلاح يعيش على حليب معزه ونعاجه وأهل الشمال الأوروبي (اللابون) يعيشون على حليب الأيائل، ثم إن الدجاج يعطينا البيض واللحم أيضاً وحيوانات البحر كلها تعطينا غذاءاً كاملاً فلماذا نقدس البقرة ولا نقدس غيرها من هذه الحيوانات التي هي أكثر منها فائدة ونفعاً وأقل كلفة؟.

ثم هل من المعقول أن نترك البقر يسرح ويمرح في البراري وتأكل طعام الإنسان ومئات الآلاف من أهل الهند ومن الهنادكة خاصة يموتون جوعاً لأنهم لا يجدون ما يأكلون ولا يستطيعون أن يأكلوا البقر ذاته لأنه مقدس؟.

أعود وأقول: «أن لا علاقة للدين بالعقل أو بالعلم بل كل الناس يقولون: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون**﴾. ومع ذلك فليس كل الناس يؤمنون إيماناً أعمى، بل هناك أناس يفتح الله بصرهم وبصيرتهم ويؤمنون

على علم، ومنهم من يعمي الله بصرهم وبصيرتهم فينحدرون إلى الهاوية. فقد انبعثت المسيحية من اليهودية وانبعثت البروتستانتينية من الكاثوليكية كما انبعثت البوذية والجينية من البرهمية وانشق من الإسلام أديان ما زال أهلها يدعون أنهم مسلمون مثل القاديانية والبهائية والدرزية وغيرها.

وأنا أعتقد أنه لا يوجد في العالم ملحداً تاماً مائة في المائة بل الملحدون لهم عقيدة الإلحاد والذين يكفرون بكل الأديان يؤمنون بوجود الخالق وقليل هم الذين لا يؤمنون بوجود الخالق. فالدين، إذن، جزء من كيان الإنسان لا غنى له عنه. فقد عبد الإنسان وهو في عقلية بدائية، الأفاعي والفرج والجبال والأنهار والبحار والحيوانات الضخمة أو المؤذية أو السامة فلما بلغ مبلغ العقل الواعي أهملها وطويت صفحة كل هذه العبادات والمعبودات ولم يبق في العالم إلاّ الهنادكة وبقرتهم وهذا ما نرجو أن يزول قريباً، وليس ذلك كرهاً بالهنادكة وببقرتهم بل ضناً بعقولهم وكرامتهم الإنسانية، وأنا على يقين بأن البقرة لن تؤاخذهم إذا لم يقدسوها ولن تضن عليهم بلبنها ولا ببقية نتاجها.

وختاماً أرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب القيم أن يوصي غيره بقراءته ثم أرجو ممن يطالع هذا الكتاب ألاّ يهمل مطالعة (منّو سمرتي) لأنه هو البحر العميق لكل هذه السخافات.

وإني لأرجو بل لأضرع إلى جميع أهل الحل والعقد من العرب والمسلمين أن يطالعوا هذا الكتاب بإمعان ونظر، ثم أن يدرسوا منو سمرتي دراسة علمية، لكي يعرفوا كيف يجب أن يعاملوا الهنادكة، ثم لكي يمدوا أيديهم بالمساعدة المعنوية والمادية إلى إخوان لنا يعيشون في الهند في ظل نظام هندوكي جائر، عيشة كلها هم وغم وضيق وقهر وعبودية وظلم وبؤس وشقاء.

وليعلم المسلمون أننا إذا لم نأخذ بأيدي إخواننا المسلمين في الهند فإنه لن يبقى فيها بعد جيل أو جيلين مسلم مؤمن بل إذا بقي هناك مسلمون

فسيكـونـون (مسلمـون هنادكة) كما يريد الهنادكة أن يكونوا: أسماء هندوكية وأعمال هندوكية.

ليس في هذا القول مبالغة أو خيالات ولا أوهام بل هي حقائق يخطط لها الهنادكة ويعلنونها فإذا لم نتخذ الحيطة أضعنا جهوداً بذلها أسلافنا في قرون وكنا أضيع من ذات النحيين، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور.

ونختم ملاحظاتنا على علمانية الهند بنشر مقدمة دستور الهند وهي هذه:

نحن شعب الهنـد قد عزمنـا بحـزم على أن ننشيء الهنـد في جمهورية ديمقراطية ذات سيادة ونؤمن لكل مواطنيها:

ـــ العـدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحرية الفكر والتعبير والاعتقاد والإيمان والعبادة.
ـــ المساواة أمام القانون والمساواة في الفرص وتعزيزها بينهم جميعاً.
ـــ الأخوة تؤكد كرامة الفرد ووحدة الأمة.
ـــ في المجلس التأسيسي الذي عقد في السادس والعشرين من نوفمبر ١٩٤٩ فإننا تبنينا وأعطينا لأنفسنا هذا الدستور.

وتضيف المجلة التي نشرت هذه المقدمة قائلة:

إن أكثر من ٦٨٤ مليون إنسان من شعبنا منشغلون اليوم في سعي دائب لترجمة الأفكار إلى الواقع وهم واثقون من أنفسهم واثقون من مستقبلهم.

ونحن نقول إن الذين نقلوا إلينا مقدمة الدستور هذه قد نسوا المادة الأخيرة منه وهي القائلة:

(اقرأ تفرح جرّب تحزن)

انتهى الكتاب بحمد الله تعالى